﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠﴾ [الأنفال: 20]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبة بين التّنديد بالعناد والجحود، والدّعوة لطاعة الله ورسوله دون كُنود

لَمّا أراهُم اللّهُ آياتِ لُطفِهِ وعنايتَهُ بهم في الآياتِ السّابقةِ، ورأوا فوائدَ امتثالِ أمرِ الرَّسولِ ﷺ بالخروجِ إلى بدرٍ، وقد كانوا كارهينَ الخروجَ؛ جاءت هذه الآيةُ لتأمرَهُم بطاعة اللّهِ ورسولِهِ شكرًا على نعمةِ النَّصرِ، واعتبارًا بأنَّ ما يأمرُهم بهِ عواقبهُ كلُّها خيرٌ، لذلك حذَّرهم من مخالفةِ أمرِ اللّهِ ورسولِهِ[1]، وممّا يذكرُ في المناسبةِ أنَّه لمّا كان سببُ ما أحَلَّهُ اللّهُ بالكفّارِ - مِنَ الإعراضِ عن إجابتِهم فيما قَصَدوا من دعائِهم ومن خِذلانِهم في هذهِ الوقعةِ وإيجابِ مثلِ ذلكَ لهم أبدًا - هو عصيانُهمُ الرَّسولَ ﷺ، وتولّيهم عن قَبولِ ما يسمعونَه منهُ؛ حذَّرَ المؤمنينَ مِن مثلِ حالِهم ذاكَ بالتَّمادي في التَّنازعِ في الغنيمةِ أو غيرِها، فقال: يا أيُّها الَّذين آمنوا أطيعوا اللّهَ الَّذي له جميعُ العزِّ والعَظَمةِ، وأطيعوا رسولَهُ ﷺ تصديقًا لِدَعْواكُمُ الإيمان، ولا تَتَولَّوْا عنه في حالٍ من الأحوال، وأنتم تسمعونَ لِما يقولُهُ، أو أنتم تُصدِّقونَه؛ لأنَّ ارتكابَ شيءٍ من ذلكَ يُكذِّبُ دَعْوَى الإيمانِ، وينطبقُ على حالِ الكُفّارِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسۡمَعُونَ﴾: السَّمعُ قوَّةٌ في الأُذُنِ به تُدرَكُ الأصواتُ، وفعلُه يُقالُ لهُ: السَّمعُ أيضًا، وقد سمِعَ سمعًا، ويُعبَّرُ تارةً بالسَّمعِ عنِ الأُذُنِ، نحو: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ﴾ [البقرة: 7]، وتارةً عن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 302/9.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 469/15، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 247/8.

فعلِه كالسَّماعِ، نحو: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾ [الشُّعراء: 212]، وتارةً عن الفَهْم، وتارةً عن الطّاعةِ، قالَ تعالى: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النِّساء: 46]، أي: فهِمْنا قولَك، وارْتَسَمْنا لهُ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الحثُّ على طاعة الله ورسوله؛ لأنّ الخيرَ كلَّهُ كامنٌ في توخّيها بعلمٍ وثبات

يأمرُ اللّهُ تعالى عبادَهُ المؤمنينَ بطاعتِه وطاعةِ رسولِه ﷺ، ويزجرُهم عن مخالفتِه والتَّشبُّهِ بالكافرينَ به المعانِدينَ له، وخاصَّةً بعدَما عَلِموا ما دعاهم إليه، ووضُحَتْ أمامَهمُ الدَّلائلُ والبراهينُ على صدقِه في رسالتِه ودَعْوتِه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ افْتتاحِ الآيةِ بأسلوبِ النِّداء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

النِّداءُ للاهْتمامِ بما وراءَهُ مِنَ الأوامرِ والنَّواهي

افْتتاحُ الآيةِ الكريمةِ بالنِّداء للاهْتمامِ بما سيُلْقى إلى المخاطَبينَ، قَصْدًا لإحضارِ الذِّهنِ لِوَعْيِ ما سَيُقالُ لهم، فنزَّلَ الحاضرَ مَنزلةَ البعيدِ، فطلبَ حضورَهُ بحرفِ النِّداء الموضوعِ لطلبِ الإقْبالِ[3]؛ لأهمّيَّةِ ما يُلقى في شأنِ الجهادِ بالدِّفاعِ عن المؤمنين والضُّعفاءِ مِنَ الشُّيوخِ والنِّساءِ والذُّرّيَّة.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمنادَى ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

أهليَّةُ المؤمنين الكاملةُ لتحمُّلِ التَّكاليفِ الإلهيَّةِ

التَّعريفُ بالموصوليَّةِ في جملةِ النِّداء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ للتَّنبيهِ على أنَّ الموصوفينَ بهذهِ الصِّلةِ مِن شأنِهم أن يتقبَّلوا ما سيُؤمَرونَ به، وأنَّه كما كانَ الشِّركُ مُسبِّبًا لمُشاقَّةِ اللّهِ ورسولِه في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: 13]؛ فخليقٌ بالإيمانِ أن يكونَ باعثًا لأهلِه على طاعةِ اللّهِ ورسولِه، وفي ذلكَ كذلكَ رفْعٌ لأقْدارِهم ومكانتِهم عندَ اللّهِ[4].

---

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 425، وابن منظور، اللّسان: (سمع).

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 303/9.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 298/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 303/9.

بلاغةُ التَّعبيرِ بجملةِ الصِّلةِ فعلًا ماضيًا ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾:

أفـادَ الفعلُ الماضي تحقُّقَ الإيمانِ في قلوبِهم، وملازمتِهم لهذه الصِّفةِ

جاءتْ جملةُ الصِّلةِ في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فعلًا ماضيًا ليُفيدَ تحقُّقَ هؤلاءِ الموصوفينَ بهذه الصِّلة بالإيمان، وإذا كانَ ذلكَ كذلكَ؛ فخليقٌ بهم - وهم على هذه الصِّفةِ الملازمةِ لهم - أنْ يكونَ إيمانُهم باعثًا لهم على طاعةِ اللهِ ورسوله، وكأنَّ في تلبُّسِهم في هذا الإيمانِ عَودًا على ما وردَ في أوَّلِ السّورةِ بقولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 1]، وفي ذلك إشارةٌ جَليَّةٌ هنا إلى أنَّ تحقُّقَ وصْفِ الإيمانِ فيهم وإفراغَهُ في صورةِ الشَّرطِ في أوَّلِ السّورةِ ما قُصِدَ منه إلّا شحذُ العزائمِ، والانْتظامُ في سِلْكِ المؤمنينَ المطيعينَ للهِ ورسولِه حقًّا وصِدْقًا[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ما سيُلقى عليهم فيه مشقَّةٌ، لاسيِّما أنَّ الأمرَ، في سياقِ الحربِ والجهادِ، وهذا أمرٌ تكتنفهُ صعوباتٌ كثيرةٌ وعراقيلُ متعدِّدةٌ، فلا يستطيعُ الصَّبرَ عليها والتَّغلُّبَ على مخاطرها إلّا من أوتي إيمانًا راسخًا.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالأمرِ بعد التَّمهيدِ له بالنِّداءِ:

للطّاعةِ أثرٌ عظيمٌ في حياةِ المؤمنين، فلا بُدَّ منَ المسارعةِ في التزامِها

جاءَ قولُه تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أمرًا بالطّاعة، وعَوْدًا على الأمرِ بالطّاعةِ الَّذي افْتُتحتْ به السّورةُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، كرجوعِ الخطيبِ إلى مقدِّمةِ كلامِه ودَليلِه؛ ليأخُذَها بعدَ الاسْتدلالِ في صورةِ نتيجةٍ أسْفَرَ عنها احْتجاجُهُ؛ لأنَّ مطلوبَ القياسِ هو عَيْنُ النَّتيجةِ، ولما لطاعةِ اللهِ ورسولِه من أثَرٍ عظيمٍ في حياتِهم، فهي سبيلٌ للنَّصرِ العظيمِ والغُنْمِ الوفيرِ، ولا يتحقَّقُ ذلكَ إلّا لمن كانَ قلبُهُ عامرًا بالإيمانِ باللهِ ورسولِه، وهذا كلُّه مَدْعاةٌ للمسارعةِ في التزامِ تلكَ الطّاعةِ[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 303/9.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 302/9.

سرُّ تكرارِ الأمرِ بالطّاعةِ في السّياق الحكيم:

التّأكيدُ على أهمّيّةِ طاعةِ الرّسولِ ﷺ

كُرِّرَ الأمرُ بالطّاعةِ في هذهِ الآيةِ مع سبقِ ذِكْرِ الأمرِ بها في أوّلِ السّورةِ في قولهِ تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ليعطفَ عليها قولهُ: ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ وأيضًا لمّا كان الكلامُ من أوّلِ السّورةِ إلى هنا واقعًا في شأنِ الجهادِ؛ عُلِمَ أنَّ المرادَ (وأنتم تسمعون دعاءَهُ إلى الجهادِ)، ويحملُ ذلك مخاطرةً بالنَّفس وبالمال، ولمّا كانت المخاطرةُ بالنَّفس شاقَّةً شديدةً على كلِّ أحدٍ، وكان ترْكُ المالِ بعدَ القُدرةِ على أخذِهِ شاقًّا شديدًا، والنَّفسُ بطبيعتِها تتبرَّمُ من ذلك، جاء الأمرُ بالطّاعةِ للّهِ ورسولهِ مرَّةً ثانيةً لتأديبِ النُّفوس وتربيتها على الانقيادِ لأوامرِ اللّهِ[1]، وممّا يؤكِّدُ هذا المعنى ما ذَكَرهُ الطَّيبيُّ في سرِّ تكرارِ الأمرِ بالطّاعةِ أنَّ الغرضَ تشديدُ الأمرِ بطاعةِ الرَّسولِ ﷺ وتحريضُ الصَّحابة - رضوانُ اللّهِ عليهم - على الانقيادِ لأمرهِ والامتناعِ عن مخالفتهِ، لاسيَّما أنَّ الآياتِ قبلَها في قصَّة بدرٍ، وأطالَ الكلامُ فيها، وبعد ذلك كرَّ إلى ما بدأ بهِ، وشدَّد فيهِ غايةَ التَّشديدِ (طاعة الرَّسول ﷺ) حيثُ جعلَها من طاعةِ اللّهِ تعالى وحذَّرَ من مخالفتهِ ﷺ بقوله: ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾[2]، وفي اقتران الإيمانِ بالطّاعةِ إشارةٌ إلى أنَّ الإيمانَ لا تقوم حقيقتُهُ إلّا على الطّاعةِ لِما تحملُ دعوةُ الإيمانِ من أوامرَ ونواهٍ، فالإيمانُ ليس مجرَّدَ إقرارٍ باللِّسان، بل لا بدَّ من تصديقهِ بالعمل، ولذلك ذمَّ اللّهُ المنافقين بقولهِ: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾[3].

دَلالةُ ذكرِ اسمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

مقامُ التَّعظيمِ للهِ يزرعُ المهابةَ، يُهيِّئُ لالتزامِ الطّاعةِ

ذِكْرُ اسمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في هذا المقامِ مقامِ التَّعظيم، مقترنًا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 132/9.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 59/7.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 585/3.

بالأمرِ بطاعتِه تعالى الَّذي هو رأسُ الأمرِ كُلِّه؛ لِزَرعِ المهابةِ في قلوبِ المؤمنينَ ودَفعِهم للمسارعةِ في امْتثالِ الطّاعة المُطلَقةِ للّه، وللتَّمهيدِ والتَّنبيهِ على أنَّ ما سيأتي من أوامرَ وزواجرَ هي شرعٌ من اللّهِ العظيم، فلا بدَّ من التزامِها[1]، وهذا دليلٌ على الاعترافِ بالعبوديَّةِ للّهِ ربِّ العالمين، ويلزمُ من ذلكَ دوامُ الانقيادِ.

بلاغةُ العطفِ بحرف (الواوِ):

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ عطفًا على اسمِ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾، ووحَّدَ بينهما بالأمرِ بالطّاعةِ لبيانِ أهميَّةِ طاعةِ رسولِه ﷺ، فطاعةُ الرَّسول ﷺ طاعةٌ للّه، فالمعنَى: وأطيعوا رسولَ اللّهِ[2]، وفيه إشارةٌ إلى تشريكِ الرَّسول ﷺ في أمرِ التَّشريع، ووجوبِ الالتزام بطاعتِه فيما يُشَرِّعُ؛ لأنَّ طاعةَ اللّهِ تعالى تكونُ على العموم، وطاعةُ الرَّسولِ ﷺ في تفصيلِ الأحكامِ وتطبيقاتِها، في هذا ردٌّ على مَن يُسَمّونَ أنفسَهم بالقرآنيّين.

طاعةُ الرَّسولِ ﷺ طاعةٌ للّهِ تعالى، وعصيانُه عصيانٌ له

بلاغةُ الإضافةِ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ للذّاتِ العَليَّةِ ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ عَوْدُ الضَّميرِ (الهاء) إلى اسْمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾، أي: أطيعوا اللّه، وأطيعوا رسولَ اللّهِ، وفي هذا تشريفٌ جليلٌ لرسولِ اللّه ﷺ، وتحفيزٌ للمؤمنينَ على طاعةِ رسولِ اللّهِ ﷺ، فإنَّ طاعتَهُ طاعةٌ للّهِ، فكلتا الطّاعتين شيءٌ واحدٌ[3].

تشريفُ مقامِ رسولِ اللهِ ﷺ، وضرورةُ طاعتِه

سرُّ التَّعبيرِ بالرِّسالةِ دونَ النُّبوَّةِ:

عبَّر بالرِّسالةِ دونَ النُّبوَّةِ؛ لأنَّ المقامَ هنا مقامُ تشريعاتٍ وتوجيهاتٍ تتعلَّقُ بحياةِ الأمَّةِ عمومًا، وفي أمرِ الجهادِ خصوصًا، وكلُّ ذلك من مقتضياتِ الرِّسالةِ.

في مقامِ التَّشريعِ، الأنسبُ التَّعبيرُ بالرِّسالةِ لأهميّتِها في السّياق المفصح

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 479/2.
(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 150/2.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 150/2، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 479/2.

دلالةُ حذفِ متعلَّقِ الطّاعةِ:

المقصودُ عمومُ الطّاعةِ، لا العباداتِ الحسيّةِ فحسب

حُذِفَ متعلَّقُ الطّاعةِ في قولِه: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وإن كان السّياقُ في شأنِ الإجابةِ إلى أمرِ الجهادِ، وترْكِ المالِ إذا أمرَ اللّهُ بتركِه للدِّلالةِ على العمومِ؛ ليشملَ كلَّ ما يصدرُ عنِ اللّهِ ورسولِه، ويدخلُ أمرُ الجهادِ والمالِ في هذا دخولًا أوَّليًّا.

بلاغةُ عطفِ أسلوبِ النَّهيِ على أسلوبِ الأمرِ في الآيةِ:

التّأكيدُ على طاعةِ اللّهِ ورسولِه، فهي قِوامُ الأمرِ كلّه

في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ﴾ عُطِفَ النَّهيُ هنا على الأمرِ في قولِه: ﴿أَطِيعُواْ﴾ لبيانِ أنَّ المرادَ هو الأمرُ بطاعةِ اللّهِ ورسولِه ﷺ، والنَّهيُ عن الإعراضِ عن طاعتِهما؛ فكلاهما مُستحقٌّ للّهِ وللرَّسولِ ﷺ، والنَّهيُ عن التَّولّي عن الرَّسولِ نهيٌ عن الإعراضِ عن أمرِ اللّهِ، ويمكنُ أن يُرادَ: أطيعوا اللّه ورسولَه، ولا تولَّوا عن هذا الأمرِ وامْتثالِه، أو ولا تتولَّوا عن رسولِ اللّهِ ﷺ، ولاتخالفوهُ[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّخفيفِ ﴿تَوَلَّوْاْ﴾:

﴿تَوَلَّوْاْ﴾ بتاءٍ واحدةٍ لإفادةِ المستقبلِ

قولُه: ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ أصلُهُ (تَتَوَلَّوْا)؛ لأنَّ (تفعَّل) دخلتْ عليه تاءُ المخاطَبِ بالفعلِ المستقبلِ، فحُذفتِ الواحدةُ، والمحذوفةُ هي تاءُ (تفعَّل)، والباقيةُ هي تاءُ العلامةِ؛ لأنَّ الحاجةَ إليها هنا ماسَّةٌ جدًّا ليَبقى الفعلُ مستقبلًا[2]، وفي التَّخفيفِ إشارةٌ إلى وجودِ تباطُؤٍ قد يحدثُ من بعضِ المؤمنين، ليس عن قصدٍ، ولكنَّه عن اجتهادٍ أخطؤوا فيه؛ فيُعَدُّ ذلك مِن صوَرِ التَّولّي، أمّا قراءةُ التَّشديدِ؛ فتُشيرُ إلى النَّهيِ لمن يُمعِنون في الإعراضِ عن طاعةِ اللّهِ ورسولِه.

سرُّ التَّعبيرِ بالضَّميرِ المفردِ ﴿عَنْهُ﴾:

رجوعُ الضَّميرِ إلى الرَّسولِ ﷺ، يفيدُ أنّ التَّولّي عن الرَّسولِ تولٍّ عنِ اللّه

إفرادُ الضَّميرِ المجرورِ بـ (عن) في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾؛ لأنَّه راجعٌ إلى الرَّسولِ ﷺ؛ إذْ هذا المناسبُ للتَّولّي بحسَبِ الحقيقةِ،

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 150/2، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 479/2.
(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 513/2.

فإفرادُ الضَّميرِ هنا يُشبِهُ ترشيحَ الاسْتعارةِ، وقد تقدَّم أنَّ النَّهيَ عن التَّولّي عنِ الرَّسولِ نهيٌ عن الإعراضِ عن أمرِ اللّهِ، لقولِه تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [الأعراف: 80][1].

وممّا يُذكر في سرِّ ذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ هو الَّذي خاطبهم، وهو المتحدِّثُ باسم ربِّه عنهم، ولا يُتصوَّرُ أن يكونَ التَّولّي عن اللّهِ تعالى بل لتَّولّي عنه ﷺ وإنَّ نسبةَ التَّولّي منهم للّهِ تعالى لا تليقُ[2]، ويحتملُ أن يكونَ الضَّميرُ راجعًا إلى الأمرِ الَّذي دلَّ عليهِ ﴿أَطِيعُواْ﴾.

سرُّ التَّعبيرِ بالتَّولّي دونَ غيرِهِ:

آثرَ في التَّعبيرِ التَّولّي دونَ غيرِهِ؛ لأنَّ لتَّولّيَ يأتي بمعنى الإعراضِ أو الانصرافِ، والمعنى: لا تنصرفوا، وأنتم تسمعون القولَ؛ لأنَّ الانصرافَ، وهم يسمعونَ القولَ يتضمَّنُ معنيين: أوَّلهما: أن يكونَ التَّولّي نفسيًّا، فهم يكونون سامعين، لكن غيرَ مُنفِّذين. ثانيهما: أن يعرضوا عن النَّبيِّ ﷺ حسّيًّا، وهو يتكلَّم، وهم يسمعون[3]، فقد عبَّر عن الأعمِّ؛ ليشملَ النَّهيُ عمّا دونَهُ.

النَّهيُ عنِ الأعلى، تنبيهٌ للنَّهي عنِ الأدنى

دلالةُ النَّهي في قولِهِ: ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾:

دلَّ النَّهيُ على وجوبِ الانتهاءِ عن التَّولّي مطلقًا، لا لتقييد النَّهي عنهُ بحال السَّماعِ، وفيهِ تحذيرٌ للمؤمنين مِن أن يخرجوا عن طاعةِ اللّهِ، وأن يخالفوا الرَّسولَ فيمَ يسمعون مِن آياتِ اللّهِ[4].

النَّهيُ عن الإعراضِ يؤكِّدُ الطّاعةَ

بلاغةُ قَيْدِ النَّهي بالجملةِ الحاليَّةِ: ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ في موضعِ الحالِ من ضميرِ ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾، والمقصودُ من هذه الحالِ تَشْويهُ التَّولّي المَنهيِّ عنه والتَّنفيرُ منه، فإنَّ العصيانَ مع توفُّرِ أسباب الطّاعةِ أشدُّ منه في حينِ انْخرامِ

ذمُّ التَّولّي، والتَّنفيرُ منهُ، وتأكيدُ وجوبِ طاعتِهِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 303/9.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3093/6.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3092/6.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 188/9.

بعضِها، وفي هذا السّياقِ تأكيدُ وجوبِ طاعتِه والمواعظِ الزّاجرةِ عن مخالفتِه، فهو سماعُ فهْمٍ وإذْعانٍ[1]، وهذهِ دعوةٌ إلى حُسنِ الاستماعِ، كما أنَّ في ذكرِ هذهِ الجملة تسجيلًا عليهم، وتحقيقًا للبلاغِ فيهم، ممّا يُسقط العذرَ، ويُشعرُ بالتَّهديدِ والوعيد.

دَلالةُ السَّمعِ في قوله: ﴿تَسْمَعُونَ﴾:

السَّمعُ وعدمُ العملِ بالمسموعِ، لا يُعدُّ سمعًا

المرادُ بالسَّمعِ هنا في قولِه تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ حقيقتُهُ، أي: في حالٍ لا يَعوزُكم تَرْكُ التَّولّي - بمعنى الإعراض - وذلكَ لأنَّ فائدةَ السَّمعِ العملُ بالمسموع، فمَنْ سمعَ الحقَّ، ولم يعملْ به؛ فهو والَّذي لا يَسمعُ سواءٌ في عَدَمِ الانْتفاعِ بذلكَ المسموع[2].

دَلالةُ تقديمِ المسنَدِ إليه على خبرِه الفعليّ:

تأكيدُ سماعِهم وتحقُّقُهُ، يقتضي الإقبالَ لا الإعراضَ

الجملةُ الحاليَّةُ ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ تقدَّمَ فيها المسنَدُ إليه على خبرِه؛ لأنَّهُ لَمّا كان الأمرُ بالطّاعةِ كلامًا يُطاعُ؛ ظَهرَ هذا الأمرُ موقعَ ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾، فلمّا كانَ الكلامُ الصّادرُ من اللّهِ ورسولِه من شأنِه أنْ يقبَلَهُ أهلُ العقولِ وذوو البصيرة؛ كانَ مجرَّدُ سماعِه مُقتضيًا عدمَ التَّولّي عنه؛ لأنَّه دعاءٌ مِنَ اللّهِ ورسولِه لجماعةِ المؤمنينَ بالقرآنِ والمواعظِ والآياتِ، فهم أحقُّ مَن يسمعُ سماعَ فهمٍ وتدبُّرٍ ثمَّ التزامٍ وعملٍ[3].

دلالةُ حذفِ مُتَعَلَّقِ ﴿تَسْمَعُونَ﴾:

العبرةُ بالسَّماعِ لا بالمسموعِ

حُذِفَ متعلَّقُ ﴿تَسْمَعُونَ﴾؛ لإفادةِ العموم، وإن كان المقصودُ سماعَ ما يُتلى مِنَ الحُججِ والبراهين، أو ما يتعلَّق بأمرِ الجهادِ، لكنَّ القرآنَ حَذَفَ المُتعلَّقَ؛ لأنَّ كلَّ ما يُسمع من رسولِ اللّهِ هو خيرٌ للفردِ وللأمَّةِ، فالعبرةُ بالسَّماعِ؛ لأنَّ كلَّ ما يقولهُ رسولُ اللّهِ جديرٌ بالسَّماعِ، فتوفَّرتِ العنايةُ على الفعلِ.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 479/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 303/9.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 303/9.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 513/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 303/9 - 304.

سرُّ اختيارِ السَّماع دونَ غيرِه:

البلاغُ طريقةُ السَّماعُ، وهو مِن مألوف المعنى

اختارَ السَّماعَ دونَ غيرِهِ؛ لأنَّ موضوعَ الطّاعةِ للّهِ ورسوله لا يتأتَّى إلّا عن طريق البلاغِ، والبلاغُ أوَّلُ وسيلةٍ له النِّداءُ، والأُذُنُ هي أوَّلُ مستقبلٍ لهذا النِّداءِ؛ لأنَّها آلةُ الإدراكِ، ولذلك كانت حكمةُ اللّهِ تعالى أن يبلِّغَ الرَّسولُ ﷺ دعوتَهُ عن طريق السَّماعِ، وليس عن طريقِ الكتابةِ؛ لأنَّها أمَّةٌ أمّيَّةٌ، والسَّماع دليلٌ على إقامةِ الحُجَّةِ، ولا يناقضُ ذلك أنَّه أرسلَ بعضَ الرَّسائلِ إلى غيرِ العربِ.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١﴾ [الأنفال: 21]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين الأمر بطاعة الله ورسوله، وبين الامتثال بالقول والفعل معًا

لَمّا بيَّنَ في الآيةِ السّابقةِ صِفةَ المؤمنينَ في طاعتِهم للّهِ ورسولِه، ونهاهم عن التَّولّي عن أوامرِ رسولِ اللّهِ ﷺ في أيِّ حالٍ من الأحوال، وذكرَ حالَهم في سمْعِهم لِما يقولُهُ رسولُ اللّهِ عنِ اللّه، وأنَّهم يُصدِّقونَه تمامَ التَّصديق؛ قالَ هنا مؤكِّدًا لذلك في هذه الآية: ولا تكونوا - أيُّها المؤمنونَ - كالَّذينَ يقولونَ بألْسنتِهم: إنّا قَبِلْنا تكاليفَ اللّهِ تعالى ثمَّ إنَّهم بقلوبِهم لا يقبَلونَها، ولا يعملونَ بها، وهي صفةٌ للمنافقين، كما أخبرَ اللّهُ عنهم بقولِه: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ [البقرة: 14][1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّظاهرُ بالسَّمعِ مع عدمِ العملِ بمقتضاهُ، ضلالٌ مُبينٌ، ونفاق مُهين

نهَى اللّهُ تعالى المؤمنينَ أنْ يكونوا كالَّذينَ يكتفونَ بمجرَّدِ الدَّعوى الخياليَّةِ الَّتي لا حقيقةَ لها، وهو التَّظاهرُ بالسَّمْعِ لما يُلقيه إليهم رسولُ اللّهِ ﷺ من أوامرِ ربِّه ونواهيه، ولكنَّهم لا يفهمونَها، ولا يَعملونَ بها، فإنَّها حالةٌ لا يرضاها اللّهُ ولا رسولُهُ، بل هي دليلُ النِّفاقِ الَّذي لا رَيْبَ فيه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ العطفِ بالواوِ، في ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾:

العطفُ تقريرٌ لِما تقدَّمَهُ، وتحذيرٌ عن مخالفتِه

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ الآية عطفًا على ما تقدَّمَه، تقريرًا للنَّهي السّابق، وتحذيرًا عن مخالفتِه، بالتَّنبيهِ على أنَّها مؤدّيةٌ إلى انْتظامِهم في سِلْكِ الكَفَرةِ، بكونِ سماعِهم كلا سَماعٍ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 469/15، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 247/8.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 271.

أي: لا تكونوا بمخالفةِ الأمرِ والنَّهي، كالَّذين قالوا: سَمِعْنا، وهم لا يسمعون[1]، والمقصودُ بعدمِ السَّماعِ عدمُ الاستجابةِ، كأنَّهُ قيل: ولاتكونوا كالَّذين قالوا: سمعنا، وهم لا يستجيبون.

بلاغةُ نفيِ الكَوْنِ ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾، على نَفْيِ الفعلِ مباشرة:

تشويهُ التَّولّي عن رسولِ اللهِ ﷺ، والتَّحذيرُ مِن اتِّباعِ أهلِ الضّلال

وردَ النَّفيُ بفعلِ الكَوْنِ ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ ليُحَقِّقَ هذا النَّفيُ عدمَ الانْخراطِ في سِلْكِ مَنْ كانوا على هذه الشّاكلةِ في كذبِهم بقولِهم: سَمِعْنا ظاهرًا، وهم لا يَسمَعون على وجهِ الحقيقةِ بالفَهمِ والعملِ بالمسموعِ، ففي هذا النَّفيِ لفعلِ الكَوْنِ مزيدُ تشويهٍ للتَّوَلّي عنِ الرَّسولِ ﷺ بالتَّحذيرِ من أنْ يكونوا كالَّذين قالوا: سمعْنا، وهم لا يسمعون[2].

الغرضُ مِنَ التَّشبيهِ بقوله: ﴿كَٱلَّذِينَ﴾:

التَّشبيهُ هنا لتجنُّبِ ما وقعَ فيه المشركونَ والمنافقونَ في سماعِهمُ الكاذب

في بلاغةِ التَّعبيرِ بالتَّشبيهِ أثَرٌ عظيمٌ في حثِّ النَّفسِ على عدمِ التَّشبُّهِ أوِ التَّجنُّب، وهذا كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا﴾ [الأنفال: 47]، فأرادَ بيانُ اللهِ من هذا التَّشبيهِ هنا تَنْفيرَ المؤمنينَ من الوقوعِ في مَغَبَّةِ خداعِهم وكذبِهم، بالتَّظاهرِ بالسَّماعِ دونَ فهمٍ أو عملٍ بالمسموع.

بلاغةُ التَّعبيرِ بإيرادِ الصِّلةِ بدلَ الصِّفةِ:

الصِّلةُ كاشفةٌ عنِ العلامةِ الَّتي بها يُعرفون

قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا﴾، وفيه إيرادُ اسْمِ الصِّلةِ بدلَ الصِّفةِ في الآية، لبيانِ أنَّ أصحابَ هذه الصِّلةِ – وهم الكافرون – معروفونَ عند المؤمنينَ بمشاهَدَتِهم، وبإخبارِ القرآنِ عنهم، فقد عَرَفوا ذلكَ من المشركين من قبلُ، قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: 31]، وقالَ ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الأنعام: 25]. فهذه الصِّلةُ المصدَّرةُ بالتَّشبيهِ أعادتْ إلى ذهنِ المؤمنينَ التَّذكيرَ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 479/2.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 304/9.

بأصحابِها، وأضْفَتْ معه التَّحذيرَ من التَّشبُّهِ بأهلِ الفئةِ الذَّميمةِ الَّذين يقولون للرَّسولِ ﷺ: سَمِعْنا، وهم لا يُصدِّقونَه فيما جاءَهم بهِ من عندِ اللّهِ، ولا يَعملون بهِ[1].

بلاغةُ المرادِ باسمِ الموصولِ ﴿كَٱلَّذِينَ﴾:

توجيهُ العنايةِ على جملةِ الصِّلةِ، ودلالتها في السّياق

عبَّرَ باسمِ الموصولِ ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ ليشملَ الكفّارَ والمنافقين واليهودَ الّذين يدَّعون السَّماع، وهم في ذلك على قسمين؛ الأوَّل: الكُفّارُ المعاندون من اليهودِ الّذين قال اللّهُ فيهم: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ الآية، وأمثالهم من الكفّارِ والمعاندين من أهلِ مكَّةَ الذين قال اللّهُ في حقِّهم: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾. الثّاني: المنافقون الذين قال تعالى في بعضِهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾[2].

الغرضُ مِنَ التَّعبيرِ بأسلوبِ طباقِ السَّلبِ:

التَّشنيعُ عليهم بوضعِهم في صورةِ من يسمعُ ولا يَسمَعُ في آنٍ واحدٍ

قولِه: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، وفيه تحذيرُ المؤمنينَ من التَّشبُّهِ بحالِ هؤلاءِ الَّذين يقولونَ بأفواهِهم: سمعْنا، وهم لا يسمعونَ، أي: سمعوا بآذانِهم، ولم يسمعوا بقلوبِهم، ويدلُّ الجمعُ بين الإثباتِ والنَّفي على أنَّ السَّماع على أقسامٍ، أوَّلها: سماعُ تفهُّمٍ وتدبُّرٍ وإدراكٍ وتنفيذ، وهذا الَّذي يطلبهُ اللّهُ تعالى ونبيُّه من المؤمنين، الثّاني: سماعٌ من غير تدبُّرٍ وإدراكٍ، وهذا ما نهى اللّهُ تعالى عنه، وهو إن لم يكن نفاقًا، فهو غفلةٌ عن الحقِّ، وليس سماع وعي وإنصاتٍ، الثّالث: سماع أهل النِّفاق الذين يقولونَ: (سمعنا وعصينا)، والملاحظُ أنَّ القسمين الأخيرين سماعٌ كلا سماعٍ[3]،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 479/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 304/9.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 523/9.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3093/6.

وعلى هذا فالمنفيُّ كمالُ السَّماع للتَّنبيهِ على أنَّ سماعَهم لعدم ترتُّب المقصودِ عليهِ كلا سماعٍ ومُنَزَّلٌ منزلةَ العدم[1]، والغرضُ مِنَ التَّعبيرِ بأسلوب طباقِ السَّلبِ التَّشنيعُ عليهم ووضعُهم في صورةِ من يسمعُ، ولايسمع في آنٍ واحدٍ، وهو ما لا يكونُ من عاقلٍ.

بلاغةُ تقييدِ قولِهم: ﴿سَمِعْنَا﴾ بالجُملةِ الحاليَّةِ بعدها:

قولُه تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ حالٌ من ضميرِ ﴿قَالُواْ﴾، أي: قالوا ذلكَ، والحالُ أنَّهم لا يسمعونَ، حيث لا يُصدِّقونَ ما سَمِعوهُ، ولا يَفهمونَه حقَّ فهْمِه، فكأنَّهم لا يَسمعونَ رأسًا، وإنْ كانوا ظاهرًا يسمعونَ[2]، فكيف بعاقلٍ يسمعُ، ولا يسمعُ ؟.

قـرنُ النَّفي بالإثباتِ، تحقيقٌ لانتفاءِ العقلِ، فالجمعُ بين المتناقضاتِ لا يكونُ من عاقلٍ

بلاغةُ تقديمِ المسنَدِ إليهِ على خبرِه الفعليّ:

تقديمُ المسنَدِ إليهِ على خبرِه الفعليِّ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ للاهْتمامِ به ليتقرَّرَ مَفهومُهُ في ذِهْنِ السّامعِ، فيُرسَّخُ اتِّصافُهُ بمفهومِ المُسنَدِ، وهو انْتفاءُ السَّمعِ عنهم[3]، وإنَّما جاء التَّقريرُ للتأكيدِ من إسنادِ نفي السَّمع مرَّتين مرَّةً إلى المبتدأ، وأخرى إلى الضَّمير العائدِ على المبتدأ، فكأنَّه في قوَّةِ ما لو قيلَ: يسمعونَ، لا يسمعونَ.

تـقـريـرُ انْـتـفـاءِ الـسَّـمْـعِ عنهُم وتأكيدُه

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ منفيًّا:

عبَّرَ بالمضارعِ المنفيِّ ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ لإفادةِ اسْتمرارِهم على عَدَمِ السَّمع[4].

عدمُ استماعِهم متجدِّدٌ مستمرٌّ

بلاغةُ أسلوبِ التَّعريضِ:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، استخدمَ القرآنُ الكريمُ أسلوبَ التَّعريضِ في هذهِ الآيةِ؛ لأنَّهُ المقصودُ

بـيـانُ حـالِ الـكـافـريـن والـمـنـافـقـين، والتَّبرُّؤُ منهم

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 49/9.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 479/2.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 304/9.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 304/9.

الأهمُّ منها، وذلك بالتَّعريض بأهلِ هذه الصِّلة مِنَ الكافرينَ أوِ المنافقينَ، لا خشيةَ وقوعِ المؤمنينَ في ذلك، فهم في حِصْنٍ مَكينٍ من التَّردّي في هاويةِ السَّماعِ وعَدَمِ الاتِّباع، ولكنَّه إيماءٌ بأخذِ مزيدِ الاحْتياطِ، والتَّبرُّؤِ التّامِّ مِنَ المشركينَ والمنافقينَ، وما هم عليه مِنَ الخداعِ والتَّكذيبِ والضَّلالِ[1].

سرُّ العدولِ عن الماضي إلى المضارعِ، في الجملةِ المنفيَّةِ:

الفعلُ الماضي لا يدلُّ على الاستمرارِ بالنَّفي والإثباتِ، بخلافِ الفعلِ المضارع

جاءَ لفظُ الجملةِ المنفيّة: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ دونَ قولِه: (وهم ما سمعوا)؛ لأنَّ لفظَ المُضيِّ (سمعوا) لا يَدُلُّ على اسْتمرارِ الحالِ ولا دَيْمومَتِه؛ بخلافِ نَفْيِ المضارع ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾، فكما يَدلُّ إثباتُه على الدَّيْمومةِ في قولهم: يَسمعُ، يعطي، يَمنَعُ، كذلكَ يَجيءُ نفيهُ[2].

نكتةُ اسْتخدامِ (لا) في النَّفْي بَدَل (ما):

(لا) أوسعُ في نفي المضارعِ، وأدَلُّ على نَفْيِه في المستقبلِ من (ما)

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾، جاءَ حرفُ النَّفي (لا) دونَ (ما)؛ لأنَّها أوسعُ في نَفْي المضارعِ من (ما)، وأدَلُّ على انْتفاءِ السَّماعِ في المستقبل، أي: هم ممَّن لا يَقْبلُ أن يَسمَع[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 304/9.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 299/5.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 299/5.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 15 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-11-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 15 : المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26.
-1القرآن - تفاسير نحوية -2 القرآن، بديع -3 القرآن، بلاغة -4 القرآن - سور وآيات -5 القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-11-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7668393 بتاريخ 2024/01/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»